عبد الله بن سبأ

هذا رجل تقرأ خبره فى كل كتاب من كتب العقائد والفرق ، وفى أكثر كتب التاريخ والأخبار التي تحدثت عن الفتنة فى أيام عثمان بن عفان ، وعن مقتل الإمام علي بن أبي طالب ، وعن الغلو والغلاة .

تقرأ خبره فى الكتب القديمة كما تقرأ خبره فى الكتب الحديثة ، التي تعرضت للموضوعات المذكورة ، حتى ليخيل اليك أنه بطل من الأبطال ، ورئيس من رؤساء الفتن فى الإسلام . ومع ذلك — وهذا هو الغريب — فإنك إذا ما تعمقت فى دراسة الروايات وقرأت كل ما ورد عنه ، خرجت وأنت لا تعرف عن نسبه وأهله شيئاً ، إنما كل ما تعرفه عنه أنه يهودي ابن يهودي ، وأن أمه كانت سوداء ولذلك عرف بابن السوداء .

قالوا إنه : عبد الله بن سبأ ، وإنه كان « يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء . »[1] فهو يماني الأصل ، يهودي الدين من جهة الأب وإفريقي من جهة الأم . أسلم كما جاء فى تاريخ الطبري زمان عثمان[2] . وقالوا : إنه كان رأساً من رؤوس الفتنة والشغب والبدعة . تنقل فى الأمصار داعياً فيها إلى الثورة . وكان من أبطال الفتنة التي قامت على عثمان ، كما كان من رؤوس الدعوة التي أسست مذهب الغلو فى علي بن أبي طالب والمبالغة فى حبه مبالغة انتهت إلى تأليهه .

وذكر بعض الأخباريين أنه أدرك وفاة عليّ بن أبي طالب ، وأنه لقي فى « المدائن » رجلاً اسمه « جرير بن قيس » ، وكان جرير قد قدم حديثاً اليها ، فسأله ابن السوداء : « ما الخبر ؟ »

---

(١) الطبري (٥/٩٨) « طبعة المطبعة الحسينية » .

(٢) الطبري (٥/٩٨) .

فقال جرير : « ضرب أمير المؤمنين ضربة يموت الرجل من أيسر منها ، ويعيش من أشد منها » . وكان جوابه : « لو جئتمونا بدماغه في ألف صرة ، لعلمنا أنه لا يموت حتى يذودكم بعصاه . » [1] ومعنى ذلك أن ابن السوداء كان حياً حين ضرب علي بن أبي طالب في الكوفة ، وأنه توفي بعد وفاة عليّ .

ومرجع هذه الرواية « الجاحظ » ، وقد ذكرها في « كتاب العصا » ، نقلاً عن « حباب ابن موسى عن مجالد عن الشعبي عن جرير بن قيس » [2] . وقد دعته بـ « ابن السوداء » ، ولم تسمه بـ « ابن سبأ » أو « عبد الله بن سبأ » ، كما سمته بقية الروايات .

وقد جعلت الرواية المتقدمة والد « ابن السوداء » رجلاً اسمه « حرب » ، ففيها : « عن جرير بن قيس ، قال : قدمت المدائن بعدما ضرب علي بن أبي طالب — كرّم الله وجهه — فلقيني ابن السوداء ، وهو ابن حرب . فقال : ما الخبر ؟ فقلت : ضرب أمير المؤمنين ضربة يموت الرجل من أيسر منها ، ويعيش من أشد منها . قال : لو جئتمونا بدماغه في مئة صرة ، لعلمنا أنه لا يموت حتى يذودكم بعصاه . »

وهذه الرواية ، هي أقدم رواية وردت عن ابن السوداء ؛ لأن ناقلها « الجاحظ » ، وهو من المتوفّين سنة « ٢٥٥ هـ » . وتعد روايات سواه متأخرة ، لأنهم كانوا من المتوفين بعده ، فهم متأخرون عنه ، وتعد رواياتهم لذلك متأخرة عن رواية الجاحظ المذكورة من ناحية الترتيب الزمني ، وإن كان من الجائز أن يكون بعضها أقدم عهداً من رواية الجاحظ ؛ لأن راويها أخذ روايته من مرجع متقدم على المرجع الذي نقل الجاحظ منه .

وبلي الجاحظ في ترتيب سني الوفاة ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ . وقد ذكر في كتابه « المعارف » ابن سبأ ، فقال : « السبئية من الرافضة : ينسبون الى عبد الله بن سبأ ، وكان أول

---

(١) البيان والتبيين (٣/٤٦) .

(٢) البيان والتبيين (٣/٤٦) « القاهرة ١٩٢٧ م » ، « طبعة حسن السندوبي » .

من كفر من الرافضة ، وقال : علي ربّ العالمين ، فأحرق علي أصحابه بالنار »[1] . ثم « النوبختي : أبو محمد الحسن بن موسى » ، وهو من رجال القرن الثالث للهجرة ، ومن علماء الشيعة المشهورين وصاحب مؤلف في فرق الشيعة معروف ومطبوع متداول يقال له « فرق الشيعة » . ثم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المفسر والمؤرخ المشهور[2] . ثم أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة « ٣٢٨ هـ »[3] .

ونجد في كتاب رجل من رجال الشيعة أيضاً « أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي » صاحب كتاب « معرفة أخبار الرجال » ، أشياء عن « ابن سبأ » لم ترد في كتاب الجاحظ ولا في كتاب ابن « قتيبة » ، وقد ذكر سندها على هذا النحو : ابن قولويه عن سعد بن عبد الله ابن أبي خلف القمي عن محمد بن عثمان العبدي عن يونس بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سنان عن أبيه وينتهي السند بجعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ للهجرة[4] .

هؤلاء هم ، في الواقع ، السند والعمدة في أخبار « ابن سبأ » . أما غيرهم من أمثال عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » ، و « ابن حزم » المتوفى سنة « ٤٥٦ هـ » ، و « أبي المظفر عماد الدين شاهفور طاهر بن محمد الاسفرايني » المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، و « الشهرستاني » المتوفى سنة ٥٤٨ هـ صاحب « الملل والنحل » ، و « الايجي » المتوفى سنة « ٧٥٦ هـ » ، والمقريزي المتوفى سنة « ٨٤٥ هـ » ، و « ابن خلدون » المتوفى سنة « ٨٠٨ هـ » ، و « الجرجاني » المتوفى سنة « ٨١٦ هـ » ، وغيرهم ، فقد بحثوا في « ابن سبأ » وفي السبئية ، ولكنهم لم يأتوا اجمالاً بشيء جديد ، يزيد على ما ذكره المتقدمون ممن ذكرت . وقد كان مرجعهم كتب أولئك المتقدمين عليهم في الغالب ،

---

(١) الفارق (ص ٢٦٧) ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ ، (ص ٣٠٠) « طبعة أوربة » .

(٢) استعنت بالطبعتين من كتابه : تأريخ الرسل والملوك : طبعة « ليدن » ، والطبعة المصرية .

(٣) العقد الفريد (٢/٢٣٦) « طبعة محمد سعيد العريان » .

(٤) راجع كتابه : معرفة أخبار الرجال .

أو الموارد التي رجع اليها أولئك المتقدمون عليهم . ولهذا فان مناقشتنا الموضوع ستكون الموارد المتقدمة بالدرجة الأولى مع الاشارة الى الموارد الأخرى بالمناسبة .

وقد عرف الشخص الذي نتحدث عنه بـ « عبد الله بن سبأ » ، في كثير من الكتب التي تحدثت عنه ، ودعي بـ « ابن سبأ » أحياناً و بـ « ابن السوداء » أحياناً أخرى . و بـ « عبد الله ابن السوداء » كذلك . أما الطبري ، فقد دعاه بالتسميتين : دعاه بـ « عبد الله بن سبأ » ودعاه بـ « أبن السوداء » [1] . وقد جعل « أحمد بن عبد ربه الاندلسي » من الرجل رجلين . فسمى أحدهما عبد الله بن سبأ ، وسمى الآخر عبد الله بن السبّاب [2] .

فأنت إذن أمام شخص عرف بـ « عبد الله بن سبأ » ، و بـ « ابن سبأ » أحياناً ، و بـ « ابن السوداء » و بـ « عبد الله بن السوداء » أحياناً أخرى . كما دعي « عبد الله بن السبّاب » في بعض المراجع . أما من دعاه « عبد الله بن سبأ » و « ابن سبأ » ، فقد جعل أباه رجلاً عرف بين الناس بـ « سبأ » . وأما من سماه « أبن السوداء » أو « عبد الله بن السوداء » ، فقد نسبه الى أمه ، وكانت سوداء ، فقلب صفتها عليها ، وصارت كأنها اسم علم لها . إلا ما كان من « الجاحظ » ، فقد ذكره بـ « ابن السوداء » ، ثم استدرك ، فقال : « وهو ابن حرب » [3] . فجعل أباه رجلاً عرف بـ « حرب » .

أما موطن « ابن سبأ » ومنشؤه الذي نشأ فيه ، فقد كاد ينصب اجماع الرواة على أنه « اليمن » ، إلا ما كان من رواية منسوبة الى « الشعبي » ورد فيها أنه كان يهودي الأصل ، من أهل الحيرة [4] . وقد اصت بعض الروايات على اسم المكان الذي ترعرع فيه من اليمن ، فجعلته « صنعاء » ، وهي مدينة صار لها شأن كبير منذ أيام استيلاء الحبش والفرس على اليمن ، وبقيت

(١) الطبري (٥/٩٨) ، طبعة المطبعة الحسينية » .
(٢) العقد الفريد (٢/٢٤١) ، ضحى الإسلام (١/٢٢٤) .
(٣) البيان والتبيين (٣/٤٦) ، طبعة السندوبي » .
(٤) الفرق بين الفرق في بحث الشيعة والغلاة (ص ٢٣) .

على هذه الأهمية فى الإسلام إلى اليوم .

وقد نسبه بعض أهل الأخبار الى « حمير » ، فدعاه بـ « الحميري » ، فهو من « حمير » على روايتهم هذه[1] . ولكن هذه النسبة لا تعني أنه كان من حمير لحماً ودماً بالضرورة ، فقد عرف « كعب الأحبار » بـ « الحميري » ، ولم يكن « كعب » من صميم حمير ، بل كان من يهود « حمير » . ونسب « وهب بن منبه » الى « حمير » كذلك ، ولم يكن « وهب » حميرياً صريحاً ، بدليل ما صرح به بعض أهل الأخبار من أنه كان « أبناوياً » ، فهو من الأبناء ، أي من ذلك الجيل الذي تكون من اختلاط الفرس بأهل اليمن الأصليين بالزواج بعد دخول اليمن فى منطقة نفوذ الساسانيين بعد طرد الحبش من اليمن وبقاء الحكم فيها فى أيدي الفرس الى ظهور الإسلام . فيجوز أن تكون حميرية ابن سبأ حميرية مكتسبة ، اكتسبها بالولاء . ويجوز أن تكون قد وردت اليه من جهة شيوع قدومه من اليمن . وقد كانت لفظة حمير يومئذ ترادف اليمن ، ولا سيما أنه نسب الى أب هو « سبأ » ، و « حمير » من « سبأ » . ورأيي أن لفظة « سبأ » نفسها ليست اسم أبي « عبد الله » ، بل هي اسم الشعب ، وأنها صارت اسم أبيه من باب التغليب .

ما ذكرت هو كل ما ورد عن ابن سبأ وعن أبيه وأمه ومن وطنه . وهو عادة مقتضبة ليس فيها عن الرجل الا القليل . أما كيف وصل الى العراق ، أو بلاد الشام ، أو أي مكان آخر دخله ، فعلمه عند ربك . وأما نواحي حياته الأخرى ، غير المبادئ التي زعم أنه جاهر بها بين المسلمين ، فلا نعلم من أمرها شيئاً . واذن ، فليس لنا هنا الا التحدث عن الآراء المنسوبة اليه وعن العقائد التي يقال إنه زرعها بين الشيعة ، وعن الفتن التي أضرم نيرانها فى أيام عثمان .

وأبدأ قبل كل شيء بالحديث عن الفتنة التي أثارها على الخليفة عثمان . وهي فتنة تحدث عنها الطبري ، وهو أقدم من أشار اليها من المؤرخين ، ثم أعطف بعده بالكلام على آرائه الأخرى

---

(١) الرسالة : الجزء ٧٧٠ ، الاثنين ١٠ مايس ١٩٤٨ .

رأياً بعد رأي ، وهي آراء تخص نوعاً خاصاً من العقائد ، تتلخص في : الوصية ، وفي الغلو في حق علي وفي الرجعة .

وترجع روايات الطبري عن « عبدالله بن سبأ » إلى سند هذه صورته : « ومما كتب به إليّ السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقعسي »[1] . أو « ... في ذلك قصة كتب إليّ بها السري يذكر أن شعيباً حدثه عن سيف ، عن عطيّة ، عن يزيد الفقعسي ، قال ... »[2] . أو « فيما كتب به إليّ السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقعسي ، قال ... »[3] . نرى من هذا السند أن الطبري قد أخذ كل ماذكره عن عبد الله بن سبأ من مصدر واحد ، هو « السري » عن « شعيب » عن « سيف » عن « عطية » ، وتنتهي سلسلة سند « السري » بـ « يزيد الفقعسي » .

وقبل أن أعرض لرجال هذا السند ، أرى تسيير كل ما أورده الطبري عن « ابن سبأ » مبتدءاً بخبر وروده الى البصرة قادماً من الحجاز[4] . ففي البصرة بدأت فتنته كما ذكر الطبري ، ومن هذه المدينة انتقل الى المدن الأخرى ، معلناً تقمصه على الخليفة عثمان : ودعوته في علي بن أبي طالب وفي الرجعة ، واقناعه أبا ذر الغفاري بأخذ رأيه في المال وفي تصرف معاوية في أموال « بيت المال » .

وإليك ما كتبه الطبري عن مجيء ابن السوداء الى البصرة ، قال : « مما كتب به إلي السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عطيّة ، عن يزيد الفقعسي ، قال : لما مضى من إمارة

---

(١) الطبري (٥/٩٠) « ذكر الخبر عن تسيير عثمان من سير من أهل البصرة الى الشأم » .

(٢) الطبري (٥/٦٦) . « أخبار أبي ذر رحمه الله تعالى » .

(٣) المصدر نفسه (ص ٩٨) « ذكر مسير من سار الى ذي خشب من أهل مصر وسبب مسير من سار الى ذي المروة من أهل العراق » .

(٤) « فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ... » ، الطبري (٥/٩٨) .

أبن عامر ثلاث سنين بلغه أن فى عبد القيس رجلاً نازلاً على حكيم بن جبلة ، وكان حكيم بن جبلة رجلاً لصّاً إذا قفل الجيوش خنس منهم ، فسعى فى أرض فارس ، فيغير على أهل الذمة ، ويقتكر لهم ، ويفسد فى الأرض ، ويصيب ما يشاء ثم يرجع ، فشكاه أهل الذمّة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب إلى عبد الله بن عامر أن « أحبسه » ومن كان مثله ، فلا يخرجنّ من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً . فحبسه ، فكان لا يستطيع أن يخرج منها . فلما قدم أبن السوداء ، نزل عليه ، واجتمع اليه نفر ، فطرح لهم أبن السوداء ، ولم يصرح ، فقبلوا منه وأستعظموه ، وأرسل إليه ابن عامر ، فسأله : ما أنت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك ، فقال : ما يبلغني ذلك ؟ أخرج عني . فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فأستقر بمصر ، وجعل بكاتبهم ويكاتبونه ، ويختلف الرجال بينهم »[1] .

ويفهم من هذا الخبر أن مجيء « ابن السوداء » إلى البصرة ونزوله على « حكيم بن جبلة » كان فى السنة الثالثة من إمارة « عبد الله بن عامر » على البصرة ، وبناء على ذلك تكون سنة مجيء « ابن السوداء » إلى البصرة سنة « ٣٢ هـ » تقريباً أو سنة « ٣٣ هـ » . فقد كان تعيين « عبد الله بن عامر » عاملاً على البصرة سنة تسع وعشرين ، عينه عليها عثمان . وكان قد عزل أبا موسى الأشعري واليها قبله . وكان عبد الله بن عامر ابن خال عثمان بن عفّان ، وكان عمره خمساً وعشرين سنة يومئذ . وقد ذكر الطبري الخبر المذكور فى جملة حوادث سنة ٣٣ للهجرة[2] .

وكانت المحطة الثانية بعد البصرة مدينة « الكوفة » ، ولم يذكر الطبري مدة مكوث « ابن السوداء » فيها ، ولا المحل الذي نزل فيه . وإنما اقتصر على الإشارة الى « خروجه منها ، واستقراره بمصر » . فكان خروج « ابن السوداء » من الكوفة خروجاً إجبارياً ، لا رأي له

---

(١) الطبري (٥/٩٠) .

(٢) الطبري (٥/١٤) « ثم دخلت سنة تسع وعشرين » « ذكر ما كان فيها من الأحداث المشهورة » .

فيه ولا اختيار ، وقد أوصله إلى مصر ، حيث استقر فيها ، وزاول عمله في إثارة الفتنة على عثمان ، وفي إعلان آرائه ، كما اتخذ مصر قاعدة سرّية اتصل منها بالمشاغبين على عثمان وبدعاة الفتنة في البصرة وفي الكوفة : يرسل رسله سرّاً اليهم ، ويتراسل معهم ، حتى أثار المصريّين ، وجعلهما يشتركان مع مصر في الحملة على الخليفة ، وفي مهاجمته في بيته بالمدينة .

ولم يشر « السري » في هذه الرواية الى بلوغ « ابن السوداء » دمشق الشأم ، ونزوله فيها أيام ولاية معاوية عليها . ولكن « الطبري » يذكر في موضع آخر من تأريخه وهو باب حوادث سنة « ٣٠ هـ » أنه بلغ دمشق الشأم ، وأنه نزل بها ، واتصل بأبي ذر الغفاري ، وكان بهما يومئذ ، وأنه أغراه بمعاوية . وقد نقل كلامه هذا عن « السري » ، بالسند نفسه المذكور في الخبر السابق ، وفي أخباره الأخرى التي أوردها عن هذا الرجل . وهاك نص ما ذكره عنه :

« وفي هذه السنة ، أعني سنة ٣٠ هـ ، كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية وإشخاص معاوية إياه من الشأم الى المدينة . وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها اليها أمور كثيرة ، كرهت ذكر أكثرها . فأما العاذرون معاوية في ذلك ، فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب إليّ بها السري ، يذكر أن شعيباً حدثه عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسيّ ، قال : لما ورد ابن السوداء الشأم ، لقي أبا ذر ، فقال : يا أبا ذر ، ألا تعجب الى معاوية يقول : المال مال الله ألا ان كل شيء لله ؟ كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين . فأتاه أبو ذر ، فقال : ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله ، يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال مال الله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإني لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين ، قال : وأتى ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له : من أنت ؟ أظنك ، والله ، يهودياً ؟ فأتى عبادة بن الصامت ، فتعلق به ، فأتى به معاوية ، فقال : هذا ، والله ، الذي بعث عليك أبا ذر . وقام أبو ذر بالشأم ، وجعل يقول : يامعشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بكاوٍ من نارٍ تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال ، حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا

الأغنياء ما يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بي ! وقد كان من أمره كيت وكيت . فكتب اليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب ، فلا تفكأ القرح ، وجهز أبا ذر إليّ ، وابعث معه دليلاً ، وزوّده ، وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت . فبعث بأبي ذر ومعه دليل . فلما قدم المدينة ، ورأى الجالس في أسـل سلع ، قال : بشر أهل المدينة بغارة شـعواء وحرب مذكار . ودخل على عثمان ، فقال : يا أبا ذر ، ما لأهل الشام يشكون ذربك ؟ فأخبره أنـه لا ينبغي أن يقال مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يفتنوا مالاً . فقال : يا أبا ذر عليّ أن أنهى ما عليّ ، وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد . قال : فتأذن لي في الخروج ، فإن المدينة ليست لي بدار . فقال : أو تستبدل بها إلا شراً منها ؟ قال : أمرني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن أخرج منها إذا بلغ البناء « سلعاً » . قال : فانفذ لما أمرك به . قال : فخرج حتى نزل الرَّبَذَة »[1] .

فكان خروج أبي ذر من دمشق ووصوله الى المدينة في سنة ثلاثين للهجرة . أما إقامته في المدينة ، فكانت كما نرى من هذه الرواية قصيرة جداً ، لعلها لم تكن الا أياماً ، ثم غادرها بعد ذلك الى الربذة حيث أقام بهـا الى سنة وفاته . وكانت في السنة الثامنة في ذي الحجة من إمارة عثمان ، أي في سنة اثنتين وثلاثين للهجرة[2] .

وبعد أن وقفنا على خبر مجيء « ابن السـوداء » الى البصرة ، وخبر التقائـه بأبي ذر في دمشق ، وتلقينه رأيه في المال ، وتعليمه التفريق بين مدلول : المال مال الله ، وهو المدلول الذي كان يقول به معاوية ، ومدلول : المال مال المسلمين ، وهو الرأي الذي نادى به أبو ذر منحولاً من ابن السوداء ، نعود الى موازنة الخبرين أحدهما بالآخر . فقد كان مجيء « ابن السوداء » الى البصرة في السنة الثالثة من حكم العامل ابن عامر . وقد رأينا أنه كان في السنة اثنتين

(١) الطبري (٥/٦٦) .

(٢) الطبري (٥/٨٠) « ذكر الخبر عن وفاته » في حوادث سنة اثنتين وثلاثين .

وثلاثين أو السنة الثالثة والثلاثين للهجرة ، كما ذكر ذلك مؤرخنا الطبري وأدرجه في حوادث هذه السنة [1] . وكانت سنة إخراجه من البصرة الى الكوفة ، ومن الكوفة الى دمشق في هذه السنة كذلك .

أما سنة إخراج أبي ذر من الشام ، وترحيله الى المدينة بناء على طلب عثمان ، استجابة لشكوى معاوية من أبي ذر ، فكانت سنة ثلاثين للهجرة . وأما سنة وفاته ، فكانت السنة الثانية بعد الثلاثين من الهجرة ، وكانت بالربذة . ومعنى هذا أن ذهاب أبي ذر الى الشام ، وخروجه منها ، كان قبل مجيء ابن السوداء الى البصرة ، وأن سنة وفاته كانت قبل ذلك . ومعنى هذا أيضاً نفي التقاء ابن السوداء بأبي ذر في دمشق ، ونفي أخذه نظريته في المال من ابن السوداء .

ثم إن من الصعب تصديق خبر أخذ أبي ذر من رجل مثل ابن السوداء ، وهو رجل نكرة من أصل يهودي ، يظهر فجأة بين المسلمين . وأبو ذر رجل شديد عنيف ، من قدماء الصحابة ، وله قدم راسخة في الإسلام ، ليست به حاجة الى الأخذ من يهودي دخل حديثاً في الإسلام ، حتى وإن قلنا بجواز التقاء أبي ذر به . لقد كان أبو ذر معتداً برأيه ، فقيهاً ، عالماً بقواعد الإسلام ، لايأخذ من أحد إلا اذا وثق به ، فكيف يتأثر برأي رجل طاريء مطارد ، يرد دمشق وهو مغضوب عليه مطعون في دينه ، ثم يتأثر به بهذه السرعة ويتحمس له ويأخذ بمقالته ؟ .

ذكر الطبري أن أبا ذر كان « يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الأعرابية ، وكان يحب الوحدة والخلوة ، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار ، فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى ، حتى يبذلوا المعروف . وقد ينبغي للمؤدي للزكاة ألا يقتصر عليها ، حتى يحسن الى الجيران والإخوان ، ويصل القرابات . فقال كعب : من أدى الفريضة ، فقد قضى ما عليه . فرفع أبو ذر عجنته ، فضربه فشجه ، فاستوهبه عثمان ، فوهبه له . وقال : يا أبا ذر ، إتق الله ،

(١) الطبري (٥/٦٠) .

واكفف يدك ولسانك . وقد كان قال له : يا ابن اليهودية ، ما أنت وما هونا ؟ والله لتسمعن مني ، أو لا دخل عليك » [1] .

ورجل يكون هذا جوابه مع رجل هو أقدم إسلاماً من أبن السوداء ، وقد اشتهر بين المسلمين بالعلم وبالوقوف على الكتب القديمة ، ويراد بها كتب يهود ، حتى نعت عندهم بـ « كعب الأحبار » ، وغطى نعته هذا اسمه ، يتجاسر عليه ويضربه في حضرة خليفة ، ويقول له : « يا ابن اليهودية ، ما أنت وما هونا ؟ والله لتسمعن مني أو لأدخل عليك » أو « يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا » برواية أخرى [2] . هل يعقل أخذه من رجل أسلم حديثاً ، ولم يكن معروفاً ، ولم يشتهر بعلم ، ولا بأي شيء مميز آخر ؟ وهل يعقل انجرافه ذلك الانجراف بدعايته ، وتحمسه ذلك التحمس له ؟ . وهل في الإسلام نقص وفراغ في هذا الباب ، حتى يأتي رجل فارغ منه لاندري مقدار موضع قدمه في الإسلام ، ليرشد أبا ذر الى هذه الناحية التي كانت من أهم النواحي المهمة التي تعرض لها الإسلام ؟

وقد جاء خبر سب أبي ذر لكعب الأحبار ، في كتاب « أنساب الأشراف » للبلاذري بشكل آخر . ورد على هذه الصورة : « لما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاث مئة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مئة ألف درهم ، جعل أبو ذر يقول : بشر الكافرين بعذاب أليم ، ويتلو قول الله عزّ وجل : (والذين يكنزون الذهب والفضة ...) الآية . فرفع ذلك مروان بن الحكم الى عثمان ، فأرسل الى أبي ذر « نائلاً » مولاه : أن انته عما يبلغني عنك . فقال : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله ؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضاه . فأغضب عثمان ذلك وأحفظه ، فتصابر ، وكف ؛ وقال عثمان يوماً : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر قضى ؟ فقال كعب الأحبار : لابأس بذلك . فقال أبو ذر :

(1) الطبري (٥/٦٧) .

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٢/٢٤٠) .

يا أبن اليهوديين ، أنعلمنا ديننا ؟ فقـــال عثمان : ما أكثر أذاك لي وأولمك بأصحابي ؟ إلحق بمكتبك ، وكان مكتبه بالشأم ، إلاّ أنه كان يقدم حاجّاً ، ويسأل عثمان الإذن له في مجاورة قبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيأذن له في ذلك . وإنما صار مكتبه بالشأم ، لأنه قال لعثمان حين رأى البناء قد بلغ « سلعاً » : إني سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : إذا بلغ البناء « سلعاً » ، فالهرب . فأذن لي آتي الشأم فأغزو هناك . فأذن له . وكان أبوذر ينكر على[1] معاوية أشياء يفعلها . وبعث اليه معاوية بثلاث مئة دينار ، فقال : إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا ، قبلتها ؛ وإن كانت صلة ، فلا حاجة لي فيها . وبعث اليه حبيب بن مسلمة الفهري بمئتي دينار ، فقال : أما وجدت أهون عليك مني حين تبعث إلي بمالٍ ؟ وردّها . وبنى معاوية الخضراء بدمشق فقال : يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله ، فهي الخيانة . وإن كانت من مالك ، فهذا الإسراف : فسكت معاوية .

وكان أبو ذر يقول : والله ، لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيه . والله إني لأرى حقاً يطفأ ، وباطلاً يحيا ، وصادقاً يُكذّب وائرة بغير تُقى ، وصالحاً مستأثراً عليه . فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية : إنّ أبا ذر مفسد عليكَ الشأم ، فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة . فكتب معاوية الى عثمان فيه . فكتب عثمان الى معاوية : أما بعد : فاحمل « جندباً » إليّ على أغلظ مركب وأوعره . فوجه معاوية من سار به الليل والنهار . فلما قدم أبو ذر المدينة ، جعل يقول : تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى، وتقرب أولاد الطلقاء ! فبعث اليه عثمان : الحق بأي أرض شئتَ . فقال : بمكة . فقال : لا . قال : فبيت المقدس . قال : لا . قال : فبأحد المصرين . قال : لا ، ولكني مُسيّرك الى الربذة . فسيره اليها ، فلم يزل بها حتى مات »[2] .

وكان أبو ذر كما جاء في الأخبار شديداً زاهداً جداً ، ينفف أي شخص معها كانت منزلته

---

(١) أنساب الأشراف (٥/٥٢) .
(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٥/٥٢ وما بعدها) .

إذا وجد أنه قد مال الى الدنيا ، وأنه قد تصرف تصرفاً يخالف ما كان في أيام الرسول . وقد عرف ذلك عن نفسه ، فكان يقول : « ما ترك الحق لي صديقاً » . أو « ما زال بي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يترك لي الحق صديقاً »[1] .

فيفهم من هذا الخبر المتقدم ومن سائر الأخبار عن أبي ذر أن حملته هذه على المكتنزين للذهب والفضة ، وعلى الجامعين للثراء ، وعلى المبتعدين عن الزهد المقبلين على الدنيا ، إنما بدأت قبل ذهابه الى دمشق بأمد طويل ، وأن خروجه من المدينة وذهابه الى الشأم كان ناشئاً من تذمره من الوضع الجديد ، وتذمر الثريين منه والغالب أن ذهابه اليها لم يكن عن طيب خاطر ، بل كان كرهاً وقسراً ، تجنباً من وقوع فتنة في مدينة الرسول بسبب حملته المتيقظة هذه ، وتخلصاً منه ، فأرسل الى معاوية ليكون في سلطانه ونفوذه وتحت تأثيره ، وهو رجل اداري سياسي ، يعالج المشكلات والمشكلات باللين والحيلة والرفق ، إلا إذا وجد عنفاً وشدة . وقد عمل معاوية كل ما أمكنه لتغيير رأي أبي ذر واقناعه بالتزام الصمت والسكوت ، كما قام بامتحانه لمعرفة درجة صدقه واخلاصه في دعوته ، بارسال الأموال المغرية اليه . فلما وجد منه الجدّ في الدعوة والصدق في القول ، والإخلاص في العقيدة وأنه ماض في ذلك لا يثنيه عنه ، شديداً لا يلين ولا يخشى عقاباً ، أدرك خطره ، وعرف ما ستعمل دعوته هذه في دمشق ، وكتب الى الخليفة يلتمس منه إصدار الأمر بنقله منها الى مكان آخر . وهكذا تخلص منه .

وقد ذكر البلاذري أخبار أبي ذر ، وذكر رأيه في المال ، ولم يشر الى التقائه بابن السوداء أو بابن سبأ . وقد جاء البلاذري بروايات عن أبي ذر لم ترد في تأريخ الطبري ، اغترفها من منابع لم يغترف الطبري منها . ولو كان قد التقى به ، أو تلقى رأيه في المال منه ، لأشار إليه ، فقد أشار كما رأينا إلى رأي أبي ذر في المال وفي الغنى والأغنياء قبل ذهابه الى الشأم . ولو كان رأي أبي ذر مأخوذاً من أحد ، لأشار البلاذري اليه ولا شك .

---

(١) البلاذري (٥/٤٠ وما بعدها) .

ولم يكن أبو ذر الشخص الوحيد الذي نادى بهذا الرأي وجاهر به ، لقد شاركه فيه وقال به كثير من الصحابة غيره . وقد أخذ عمر بن الخطاب الصحابة بالشدة في اقتطاع الأرض وامتلاك الأملاك ، وعنف العمال لابتنائهم البيوت بالجص والآجر واستخدامهم خشب الآبنوس في البناء . ثم لم يكتف بذلك ؛ بل حصر قريشاً والصحابة في المدينة ، ولم يسمح لهم بمغادرتها إلا بإذن خشية أن يذهبوا الى الأمصار ويقيموا فيها ويتملكوا الأملاك الواسعة ، فيبطروا ، ويبتعدوا عن جو بلادهم البسيط ، وعن شظف العيش .

ونظرية أبي ذر في المال لا تدخل في موضوعنا هذا ، والبحث فيها يشغلنا عن أصل بحثنا ، فليس لنا إلا أن نتتبع ابن سبأ أو ابن السوداء . وقد أوصله بعض الأخباريين الى دمشق ، فزعموا أنه قابل أبا ذر وقابل نفراً غيره من الصحابة ، ثم غادر دمشق الى مصر . أما كيف غادرها ، وكيف وصل الى مصر ، وكم مكث في دمشق ، فتلك أسئلة لم يجب أهل الأخبار عنها ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث فيها ، فلهذا عنها لذلك جهل ، وإحاطتنا بأخباره في مدينة معاوية صفر .

أما في مصر ، فقد أصاب ابن السوداء فيها نجاحاً كما يظهر من خبر « يزيد الفقعسي » ، فتمكن من إقرار آرائه ، ومن إثارة القوم على الخليفة ، ومن مكاتبة أهل البصرة والكوفة في الثورة على عثمان وعلى عماله حتى أشعلها ناراً ، وحتى نجح في تأليب الناس في تلك الأماكن ، وهي مواضع حساسة جداً ، فأقبلت على المدينة ، وشاغبت فيها ، وحاصرت الخليفة ، ولم ترجع إلا بعد قتلها له ، وإثارتها فتنة كانت آثارها في المسلمين عظيمة ، فقسمتهم وشتت شملهم ، وأهلكت عدداً كبيراً منهم في الحروب الأهلية التي وقعت فيما بعد .

وأما إقامة ابن السوداء بمصر ، ومدة مكوثه فيها والمحل الذي نزل به ، والأشخاص الذين حل عليهم ، فهذه وأمثالها أمور لم يتحدث « الفقعسي » عنها ولم يشر إليها . لقد اكتفى بإيصاله الى مصر ، وبنسبة الفتنة له ، ثم تركه هناك ، دون أن يتطرق الى الجزئيات والفروع والتفاصيل . ومن هنا كان كل ما نعرفه عنه هناك أنه وجد أرضاً خصبة زرع فيها الفتنة ،

ولكننا لا ندري أين زرعها ؟ ومن ساعده على زرعها هناك ؟

ويذكر المقدسي أن عبد الله بن سبأ قال لأهل مصر : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) ! فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها . ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي . وكان عليٌ وصي محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء . ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ووثب على وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتناول أمر الأمة ؟ ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق . وهذا — يعني علياً — وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا في هذا الأمر ، فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الأمر .

فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار ، وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسترون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة ، فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار . فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس ... فأتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا ، والله ، ما جاءني إلاّ السلامة . قالوا : فإنّا قد أتانا . وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم . قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا عليّ . قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار ، حتى يرجعوا إليك

بأخبارهم . فدعا محمد بن مسلمة ، فأرسله الى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد الى البصرة ، وأرسل عمّار بن ياسر الى مصر ، وأرسل عبد الله بن عمر الى الشام ، وفرق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمّار ، فقالوا : أيها الناس ، ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامّهم ، وقالوا جميعاً : الأمر أمر المسلمين ، الا أن أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم . واستبطأ الناس عمّاراً حتى ظنّوا أنه قد اُغتيل ، فلم يفجأهم إلاّ كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، يخبرهم أن عماراً قد اُستأله قوم بمصر ، وقد انقطعوا اليه ، منهم : عبد الله ابن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر [1] » .

وقد أيد البلاذري ما جاء في تأريخ الطبري من إرسال عثمان عمار بن ياسر الى مصر « ليأتيه بصحة خبر ابن أبي حذيفة ، وحق ما بلغه عنه من باطله ، وأمره أن يقوم بعذره ، ويضمن عنه العتبى لن قدم عليه . » ولكنه بدلاً من أن يهدىء الأحوال ، ويسكت ابن أبي حذيفة ، « حرض الناس على عثمان ، ودعاهم الى خلعه ، وأشعلها عليه ، وقوّى رأي ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر ، وشجعهما على المسير الى المدينة [2] » . ثم رجع مع من جاء من المصريين الناقمين الى المدينة ، واتصل بهم هناك ، وكان من المحرضين على الخليفة .

ولكنه لم يشر الى عبد الله بن سبأ أو ابن السوداء ، ولم يذكره كما ذكره الطبري . وقد ذكر الطبري أن ابن السوداء كان في جملة المصريين الناقمين على عثمان ، الذين جاؤوا إلى المدينة فأثاروا الفتنة فيها ، الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة ، وسنده في ذلك : « السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان [3] » .

أما إرسال عثمان عمار بن ياسر الى مصر ، فمسألة فيها نظر ، وإن نص عليها بعض الأخباريين ، فقد كان عمار مخاصماً لعثمان ، منتقداً له . وقد جادله مراراً ، واصطدم به مراراً اصطداماً عنيفاً .

---

(١) الطبري (٥/٩٨ وما بعدها) .

(٢) البلاذري (٥/٥١) .

(٣) الطبري (٥/١٠٣ وما بعدها) .

وكان متحاملاً عليه ، فليس من المعقول تكليفه القيام بهذه المهمة الخطيرة ، مهمة إشاعة الأمن والطمأنينة بين أهل مصر ، وهو نفسه من الناقمين عليه ، خاصة كانت إشارة من نصح عثمان بإرسال الرجال الى الأمصار ليرجعوا اليه بالأخبار الصحيحة عن الوضع ، بأن يكون أولئك الوفدين ممن يثق بهم الخليفة ويعتمد عليهم [1] . ولم يكن عمار بإجماع الأخبار ممن تنطبق عليه جملة « ممن تثق بهم » .

ولذلك لا يعقل اختيار عثمان لعمار من دون الناس لهذه المهمة ، وإن فرضنا أنه إنما فعل ذلك لعلم عثمان بأثر عمار في أهل مصر وبمكانته عندهم ، وأنه أراد بذلك أيضاً مصالحته واستدراجه اليه . فان عماراً لم يكن من أولئك الذين يستدرجون في سهولة ويصالحون في يسر . وقد خرج غاضباً وعاد غاضباً على عثمان .

وقد ذكر البلاذري أن عماراً بحسب رواية بعض الأخباريين كان في جملة من خرج مع علي بن أبي طالب ، لتهدئة روع المصريين واسكاتهم بعد أن طلب عثمان من علي أن يفعل ذلك [2] ، وهذا يدل على أنه كان في المدينة حين قدوم الوفد . ويفهم من بعض روايات الطبري أن عماراً كان في المدينة حين وصل المصريون اليها ، وأنه اتصل بهم ، وجاء اليهم من المدينة .

أولد بمقتل الخليفة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار ، خشي معظم أهل المدينة في بيوتهم ، دفاعاً عن أنفسهم وعن أموالهم ، وانتهز الأعراب والمسعدون هذه الفرصة فالتفوا حول الثائرين ، وهرب الموالي من سادتهم ولم يعودوا يطيعونهم وكان موقف الخليفة الجديد سبباً بين الآراء المتضاربة والفتن المتعددة التي ظهرت منذ أيام عمر : كان عليه ارجاع الأمن وإسكات الشغب ، واجابة مطالب الأغلبية ، وإصلاح بيت المال ، وكان عليه التهيؤ لمقاومة الجماعة الثائرة له ، وهي جماعة قوية ، تعتمد على الدهاء والمكر السياسي ، وعلى المال تنفقه من غير حساب في

(١) « ... قالوا نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم... » ، الطبري (٥/٩٩) .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٥/٦١) .

اكتساب ذوي الرأي والنفوذ ، وابعادهم عن الخليفة الجديد .

ولم تكن حركة ثوب الأعراب والموالي على سادتهم حركة خاصة في المدينة ، بل كانت وبدأت في العراق ثم انتشرت الى مصر وبلاد الشام وسائر الأماكن ، ومنها انتقلت الى « المدينة » عاصمة الخلافة . لقد كانت أسبابها ودوافعها قديمة ، ترجع الى ما قبل الإسلام ، وقد ثارت الآن لمجيء وفود جديد اليها ، فظهرت في شكل هذه الثورة المؤسفة والثورات المتوالية التي شغلت علياً وبني أمية ، حتى انتهت بسقوط دولتهم ، وذهاب ملكهم ، ولو انتبه المسؤولون الى عواملها الأصلية ، لسلموا ، وارتاحوا ، وعاشوا في أمن وراحة وسلام .

لقد عرفت جرثومة دعاة الحركة المناوئة لعثمان بـ « السبئية » في تأريخ الطبري . ونحن لا يعنينا في هذا المكان إلا هؤلاء . ويظهر من روايات هذا المؤرخ ، وكلها من « سيف » ، أن هذه الجماعة كانت بمصر ، وأنها وردت المدينة منها ، وأنها صارت جماعة ذات أثر خطير في تلك الأيام ، وإن لم تكن تضم أناساً من المشاهير المعروفين ، فلم يكن فيها من أبناء الأسر ، أسر قريش المعروفة ، ولم يكن من بينها من كان من الصحابة ، بل كان جلهم من الشبان أو الكهول الناقمين على الوضع العام ، وعلى الاسراف في بيت مال المسلمين يذهب الى « أولاد الطلقاء » والى نفر من حارب النبي في جانب قريش . هذه كانت بعض دعواهم فيما أذاعوه على الناس [1] .

وقد تكرر ورود لفظة « السبئية » في تأريخ الطبري عن أيام الفتن التي وقعت في أيام عثمان وفي أثناء تولي علي الخلافة . وقد كانوا قوة لها أهميـــة في معركة الجمل ، ترمي بالشغب ، وتحرك المعركة كما يذكر الرواة بحسب رأيها وخططها . وكان لها رأي مسموع في خلافة علي ، لامتلاكها ناصية الدعاية والتأثير في السواد وتوجيه الرأي العام . ومع ذلك لم يتيســـر أصحاب الأخبار الى أصل التسمية ، هل جاءت من نسبتها الى عبد الله بن سبأ ، أو من انتسابها الى « سبأ » أي الى يمن ، فهم جماعة يمانون وذلك على نحو ورود لفظة « مضرية » من نسبتها الى

(١) الطبري (٥/١٠٢) .

مصر ، وقد كان لها أيضاً أثر خطير فى معركة الجمل .

والظاهر أنها كانت كتلة من أكثر الكتل السياسية التي ظهرت فى أيام عثمان نظاماً . كانت بارعة فى توجيه دعايتها ونشر أغراضها ، نشيطة فى تكوين الفروع السرية لها ، متمكنة من معرفة أسباب التذمر ، عارفة بالمواضع الحساسة من الحياة وبما يشكو منه الناس . وقد تسترت فى دعوتها ، وجاهرت بها بحسب الظروف والأحوال ، وكانت تتراسل مع من عرفت منه التذمر والتشكي من سوء الوضع ، وتتقصى أخبار الولاة وأخبار المخالفات التى يقومون بها ، ولا سيما أخبار التجاوز والتطاول على بيت المال ، فتذيعها بين الناس ، الإشهار والإعلان ، تذيع أخبار الأمصار فى مصر ، وأخبار مصر فى الأمصار ، وهكذا كان الناقمون على علم بما يجري في سائر بلاد الإسلام .

وكانت الكوفة والبصرة من أكثر المواضع حساسية فى العالم الاسلامي ، وهما فى ذلك أشد خطراً من مصر . فرأى « أهل مصر » مكانية زعماء المصريين والاتصال بهم ، لتوحيد الخطط ، وتكوين قيادة ثورية واحدة ، تقوم بعمل واحد ، وتنتهج فى عملها نهجاً واحداً . وقد وردت جملة « أهل مصر » فى مواضع من تأريخ الطبري كناية عن الثائرين . وهي تؤدي معنى « السبئية » أي الثوار المصريين الذين كانوا ينقمون على عثمان . وكان من زعمائهم : عبد الرحمن ابن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر الليثي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقتيرة السكوني ، والغافقي بن حرب العكّي ، وابن السوداء .

ويذكر « سيف » أن الناقمين على الخليفة فى الأماكن الثلاثة المذكورة اتفقوا أولاً وبعد أن تمت خططهم على « أن يثوروا خلاف أمرائهم واتعدوا يوماً » ، ثم أجلوا الثورة الى وقت مناسب آخر[1] . ورأت « السبئية » وضع خطة أخرى محكمة ، فـ « كاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون ، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ، ويسألون

(١) الطبري (٥/١٠١ وما بعدها) .

عثمان من أشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه . فتوافوا بالمدينة . وأرسل عثمان رجلين مخزومياً وزهرياً ، فقال : أنظرا ماذا يريدون ، وأعلما علمهم ، وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب . فاصطبرا للحق ، ولم يضطغنا ، فلما رأوهما ، باثوهما ، وأخبروهما بما يريدون ، فقالا : من معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا : ثلاثة نفر . فقالا : هل إلا قالوا لا قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ قالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه وكانت إياها » [1] .

وتكاتب أولئك الناقمون ، وقالوا : موعدكم ضواحي المدينة في شوال ، على أن يأتوا بهيئة الحجاج ، وذلك من سنة خمس وثلاثين .

وفي الأجل المضروب الذي تكاتبوا عليه ، خرج الناقمون من أهل البصرة والكوفة في زي الحجاج قاصدين الحجاز . وقد قسم أهل كل مصر من هذه الأمصار الثلاثة جماعتهم الى أربعة أقسام ، عرفت كل جماعة من هذه الجماعات بـ « الرفاق » جمع « رفيق » ، وعلى رأس « الرفاق » رؤساء يتولون شؤون الرفاق . فكان على رأس « رفاق » البصرة الأربعة أربعة رؤساء وعلى رأس « رفاق » الكوفة الأربعة أربعة رؤساء وعلى رأس « رفاق » مصر الأربعة أربعة رؤساء كذلك ، ومجموعهم اثنا عشر رئيساً أو « رفيقاً » يدير شؤون الرفاق .

وجعلوا على كل قوم من الأقوام الثلاثة ، أي على كل أربعة « رفاق » ، رئيساً أعلى يشرف على القوم . فكان الغافقي بن حرب العكي على « قوم » مصر ، وكان عمرو بن الأصم على قوم الكوفة ، وكان حرقوص بن زهير السعدي على قوم البصرة . وقد نعت رئيس القوم بـ « الأمير » . وكان « ابن السوداء » في جملة رجال رفاق مصر ، ولكن « السري » صاحب هذا الخبر ، لم يذكره في جملة الرؤساء أو الأمراء [2] .

(١) الطبري (١٠١/٥ وما بعدها) .

(٢) الطبري (١٠٣/٥ وما بعدها) .

كان اتجاه هذه الحركة التي ظهرت ضد عثمان اتجاهاً اجتماعياً في الدرجة الأولى إذن . وأما ما لابسها من تحزب وتشيع لعلي ، فلم يكن أثر له في البدء ، كان هوى الناقمين على الخليفة من أهل الكوفة في الزبير ، وكان هوى أهل البصرة في طلحة ، وكل من هؤلاء يدعو الى صاحبه ، ويسعى اليه . ولما ورد وفدها ضواحي المدينة على البعاد المتفق عليه ، راجع كل « رفاق » من الرفاقين صاحبه ، إلاّ « رفاق » مصر ، فقد راجعوا علي بن أبي طالب ، وكان هواهم فيه . ويذكر « الطبري » نقلاً عن « السري » أن هذه الحركة بدأت في السنة الأولى من إمارة عثمان ، بدأت على أثر اتخاذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار ، وانقطاع أناس إليهم ، واستغلالهم آلاف الرقيق ، ثبتوا على ذلك سنين . ثم إن ابن السوداء أسلم ، وتكلم ، فوجدت دعوته رواجاً بين الناس . وكان عمر « قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان ، إلاّ بإذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فقال : ألا إني قد سننت الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأنا وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحُجزها أن يتهافتوا في النار »[1] .

فلما مات عمر ، تنفس هؤلاء الرجال من قريش ، وتنفست أموالهم ، وكثرت أملاكهم كثرة لا يفكر فيها إلاّ من كان محروماً معدماً . فامتلكوا الأرضين الواسعة في العراق ، واقتطعوا خيرة الاقطاعيات الخصبة ، واستغلوا الأنوف من أصحاب الأرض الأصليين من الموالي ، ومن هنا نبتت الشكاوى وارتفعت ، وظهرت معها نظرية « السواد بستان قريش » .

يقول السري : فلما ولي عثمان ، لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا في البلاد . فلما رأوها ، رأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام ، فكان مغموماً في الناس وصاروا أوزاعاً اليهم ، وأملوهم ، وتقدموا في ذلك ، فقالوا : يملكون ،

(١) الطبري (٥/١٣٤) .

فنكون قد عرفناهم ، وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم . فكان ذاك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت في العامة ، ليس إلاّ ذلك » (١) . وذكر أيضاً « لم يمت عمر ، رضي الله عنه ، حتى ملته قريش . وقد كان حصرهم بالمدينة ، فأمتنع عليهم . وقال : إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، فان كان الرجل ليستأذنه في الغزو ، وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ، فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما يبلغك ؛ وخير لك من الغزو اليوم : ألاّ ترى الدنيا ولا تراك . فلما ولي عثمان ، خلّى عنهم ، فاضطربوا في البلاد ، وانقطع اليهم الناس ، فكان أحب اليهم من عمر » (٢) .

وقد كان عمر شديداً في هذا الباب ، يرى التقشف في الحياة ، ويطبق ذلك على نفسه وعلى أهله أولاً . كان لا يلبس إلا الملابس الخشنة ، ولا يأكل إلا الأكل البسيط الذي يكون في متناول الطبقات الفقيرة . لم يرض بنخل الدقيق ، ولم يستعمل اللحم إلا في القليل ، أسوة بالفقراء والمعوزين . وهذا مما غاظ الطبقات الغنية من قريش التي كسبت وحصلت على مالها في الإسلام . وقد أكل بعض الناس مع عمر ، وأكلوا مع عثمان ، وهاك ما قاله بعض هؤلاء :

قال عمرو بن أمية الضمري : كنت أتعشى مع عثمان خزيراً من طبخ من أجود ما رأيت قطّ : فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن . فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قطّ . فقال : يرحم الله ابن الخطاب ، أكلت معه هذه الخزيرة قط ؟ قلت : نعم ، فكادت اللقمة تفرث في يدي حين أهوي بها الى فمي وليس فيها لحم ، وكان أدمها السمن ، ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ، إن عمر ، رضي الله عنه ، أتعب والله من تبع أثره ، وإنه كان يطلب بثنيه عن هذه الأمور ظلفا » وقال عبد الله بن عامر : « كنت أفطر مع عثمان في شهر رمضان ، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر . قد رأيت على مائدة

(١) الطبري (٤/١٣٤) .

(٢) الطبري (٥/١٣٤) .

عثمان الدرمك الجيد ، وصغار الضأن كل ليلة ، وما رأيت عمر قطُّ أكل من الدقيق منخولاً ، ولا أكل من الغنم إلاّ مسانها . فقلت لعثمان فى ذلك ، فقـــال : يرحم الله عمر ، ومن يطيق ما كان عمر يطيق »[1] .

وهناك قسم من هذا النوع يمثل التغير الذي طرأ في أيام عثمان على حياة بعض أسر قريش والتطور الكبير الذي طرأ عليهم بالقياس الى أيام عمر : تطور ظهر فى الثروة الكبيرة التي انهالت عليهم ، وفيما يعقب الثروات الضخمة في العادة من ولوج حياة البطر والرفاهية والترف فى الحياة ، ومن ميل الى زيادة الربح وتضخيم الثروة دون نظر الى مستوى الآخرين . وهذا مما ولد السخط لا فى نفوس الموالي والأرقاء وحدهم ، بل فى نفوس كثير من قريش والأنصـار ، رأوا أن الحيـاة الجديدة قد أنشأت ظروفاً تتعارض مع دعوة النبوة وأحكام الإسلام ، وأنهـا جعلت ممن حاربوا الإسلام فى أيام النبي ، ولم يسلموا إلا فى أيام نصره ، أو من تسلهم طبقة سادة متنفذة مكتنزة المال ، تأخذه من بيت مال المسلمين ، ولا تدفع إليـه إلا النزر اليسير . أما من حارب وجاهد فى سبيل الإسلام ، فقد حُرم ذلك ، أو قتر عليه ، أو حيل بينه وبين الأرض ، مع أنه قديم عهد بالاسلام . ومن هنـا نشأ التـذمر ، وارتفعت الأصوات بظهور مخالفـات وتصرفات شخصية وكيفية لم تعرف فى أيام الرسول ولا فى أيام الشيخين[2] .

وإذا كانت حركة التذمر هذه قد ظهرت فى المدينة ، وإذا كان عمر قد تكهن بها وشخصهـا وعرف نتائجها وهو خليفة ، فإن شعور أهل المدينة بها لم يكن بدرجة شعور أهل البلاد المفتوحة ولا سيما أهل العراق . فقد مضى العراق بالإقطاع فى العهد الساساني السابق للإسلام ، فكان فى ذلك العهد سادة وأتباع : سـادة هم الأسرة المالكة الساسانية والوزراء والمرازبة والدهـاقين ورجال الدين ، ولكل منهم أرضون واسعة تستغل لحسابهم وحدهم ، واتباع كانوا يشتغلون إما لغيرهم ، وإما لحسابهم ، ولكن بكسب ضئيل لا يكفي إلا لسد الرمق فى الغالب وهذا ما جعل

(١) الطبري (٥/١٣٦) .

(٢) راجع أجوبة الخليفة عثمان على اعتراضات منتقديه .

السكان وهم أنماط من الناس وخليط من أجناس وأديان ، ينقمون على الحكومة ويشعرون أنها هيأة غريبة عنهم ، لا تعرفهم إلا عند حاجتها الى المال . فلما جاء المسلمون ، فرحوا بهم ، ورأوا في قدومهم الخلاص والفرج بعد الشدة ، وسهلوا للفاتحين سبل الفتح ، ودخلوا في الاسلام أفواجاً أفواجاً ، ولكنهم سرعان ما شعروا أن مشكلاتهم الأصلية ، المتعلقة بمعاشهم وبحياتهم لم تحل ، فما انتقلت الأرض الى ملاك جدد ، لم يكونوا من أصحاب الإقطاع في السابق ، ولا علم لهم بادارة الأملاك ، استأثروا بخيرات الأرض دونهم ، مع مساواة الإسلام بين الجميع في الحقوق ، ورأوا أن الدهاقين القدماء المستغلين قد استمالوا بالسادة الجدد وهم من رجال قريش ، فتقربوا اليهم ، مستغلين نفوذهم وسلطانهم وصاروا كالسابق يتحكمون فيهم . فالوضع الجديد إذن هو استمرار الوضع القديم مع فارق واحد ، هو ذهاب سيادة قدماء ومجيء سادة جدد أخذوا مواضع الماضين .

وقد كان الناقمون على الخليفة ألواناً ، لا تجمع بينهم جامعة ، لتعدد دوافع النقمة . وكان « السبئيون » في جملة هؤلاء . ولما كان موضوعنا خاصاً بهم ، وليست له صلة مباشرة بموضوع الفتنة على عثمان ، فسنقصر الكلام عليهم وعلى بقية دعوتهم في أيام عثمان وعلي .

وقد وردت لفظة : « سبئي » في بعض الروايات مرادفة لمنتقم لخصم ، مدفوعاً على خصومته هذه بعامل النقمة ، كالذي ورد عن « عمير بن ضابىء البرجمي » وكان أبوه قد مات في الحبس ، عزره عثمان وحبسه لعمل ارتكبه ، فصار ابنه من أشد الناس على الخليفة . ولما تحدث « السري » عن سبب الخصومة ، تعرض لحال أبيه ، ثم قال : « فلذلك صار عمير بن ضابىء سبئياً »[1] .

والغريب أن هذا الدور الذي ينسبه « السري » الى « ابن السوداء » والى السبئيين لا نجد له ذكراً في الجزء الخاص من تأريخ « البلاذري » المطبوع ، وفي هذا الجزء خبر خلافة عثمان

(١) الطبري (٥/١٢٧) ، البلاذري : أنساب (٥/٨٤) .

وتفاصيل مقتله ومن اشترك فيه . ثم من الغريب أيضاً أننا لا نجد في مراثي عثمان الواردة في تاريخ الطبري أو في « أنساب الأشراف » أو في أي مكان آخر اشارة الى دور هذا اليهودي المسلم ، ودور السبئيين في التحريض على الخليفة وفي اثارة الفتن عليه . والاشارة الى دور هؤلاء مهمة جداً ، ولا سيما أن مثيرها كما يذكر « السري » رجل من أصل يهودي . فالإشارة اليهم خير مطمن وأحسن مثلبة توجه الى خصوم عثمان والمتجاسرين عليه . لقد طعنوا في علي فاتهموه بأن له يداً في قتل عثمان [1] ، وأشاروا الى قتلته ، فلم لم يشيروا الى ابن السوداء والى السبئيين إن كان للسبئيين يد في قتل عثمان ؟

والسبئية كما رأيناها في روايات « السري » حركة اجتماعية ذات اتجاه اشتراكي متطرف تدعو الى الثورة على الأغنياء وعلى الأثرياء الجدد وعلى السادة الجدد الذين امتلكوا أرضين واسعة في المناطق الخصبة من العراق ، وقد تحاملت على عثمان لأنه تساهل على زعمها مع أقربائه ومع بني أمية ، فتركهم يعبثون في بيت المال ، أخذوا منه ما لا يستحقونه ، فأثروا ، وامتلكوا ، واكتنزوا ، وتحكموا في شؤون الفقراء . فماذا كان رأيها بعد مقتل عثمان ؟ وماذا كان موقفها من الخليفة علي ؟ هل كانت معه أم عليه ؟

و « السري » — بعدُ — موردنا وسندنا الأول والأخير في هذا البحث أيضاً . وهو يتحدث عنهم في أثناء كلامه على خلافة علي ، فيرينا إياهم أناساً ظنوا أن الأمر سيكون في

---

(١) قال حسان بن ثابت :

يا ليت شعري ، وليت الطير تخبرني : ما كان شأن علي وابن عفانا

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط :

بني هاشم ، ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه
وكيف يرجون البراءة عندنا وعند علي سيفه ونجائبه

البلاذري (٥/١٠١) .

أيديهم ، وأن الحكم سيكون لهم في أيام علي ، وأنه سيفقد رغباتهم ، وإذا به يخالفهم في الرأي ، ويجادلهم في مذهبهم ولا يقرهم على ما ذهبوا إليه . وقد أزعجهم رأي علي هذا وغاضهم ، ولكنهم لم يجرؤوا على الثورة عليه علناً ، وإنما سكتوا وصبروا وعملوا ضده سراً ، وذلك ببث دعاياتهم بين جماعته وأنصاره وإشاعة الفرقة بين حزبه ، وقد أضر عملهم هذا بعلي ، كما ألحق الضرر بهم ، وساعدوا من حيث لا يدرون بتقوية جبهة معاوية ، وبإضعاف جبهة علي وإضعاف علي معناه إضعافهم هم من حيث لا يدرون . فمعاوية خصم كما هو معروف للجانبين .

بويع علي بالخلافة ، وكانت الحالة فوضى ، والآراء متضاربة ، ودعاة الفتن نشيطون في كل مكان . وجاء إليه طلحة والزبير في عدة من الصحابة يقولون: « يا علي ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل ، وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم : يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . »[1] ثم إنه تأثر من مقالة بعض الناس فيه ، فقام في قريش « فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر فضلهم ، وحاجته إليهم ، ونظره لهم ، وقيامه دونهم ؛ وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل عليه . ونادى : برئت الذمة من عبد لم يرجع الى مواليه . فتذامرت السبئية والأعراب ، وقالوا : لنا غداً مثلها ، ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء[2] » .

وذكر « الطبري » أيضاً أن علياً خرج في اليوم الثالث على الناس ، « فقال : يا أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب . وقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم ، فأبت السبئية ، وأطاعهم الأعراب ، ودخل علي بيته .[3] »

(١) الطبري (١٥٨/٥) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبري (١٦٠/٥) .

وهكذا نرى السبئية والموالي والأعراب جبهة متحدة ضد أصحاب الأرض والمثرين من قريش . لا يرون الرجوع الى حاكهم إلا بشروط ، وإلا باصلاح حالهم وانصافهم وإعطائهم حقهم في العمل والانتاج . أما سادتهم من قريش ، فهم يأبون عليهم ذلك ، ويرون في قولهم هذا تحدياً وفتنة ، وتطاولاً عليهم ، وخروجاً على القانون والنظام . ومرت المدينة ، المقر الذي قتل فيه الخليفة وبويع فيه الخليفة الجديد ، حالة من الفزع والاضطراب .

وحار علي في الأمر ، وخرج معظم الصحابة عنها ، فكان الكثير منهم قد تركها يوم وصول « المصريين » اليها ، وعلمهم بانفلات الأمر من يدي عثمان . وصار الناس القادمين من المدينة يجيبون حين يسـألون عن الوضع : « قتل عثمان ، واجتمع الناس على علي ، والأمر أمر الغوغاء »[١] .

وقد عزا من خرج من المدينة مهاجراً أو فاراً من هـذا الوضع سوء الحال الى « الغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل » ، والى مظاهرة الأعراب والعبيد لهم[٢] . وكل هؤلاء هم من الطبقات المتذمرة الفقيرة المعدمة ، التي يرجع تذمرها الى عهد بعيد قبل الاسلام ، وهم الأكثرية الغالبة ؛ لهذا غلبوا على المدينة ، وتحكموا فيها في هذا العهد .

وقد أولدت هذه الحالة مشكلة خطيرة لعلي ، أدركتها السبئية منذ أول يوم استخلف فيه ، فقالت له :

خذها اليك واحذرنْ أبا حسنْ ... إنا نمرُّ الأمر إمرار الرسنْ

صولة أقوام كأسداد السفنْ ... بمشرفيات كغدران اللبنْ

ونطعن الملك بلين كالشطنْ ... حتى يُمرَّن على غير عنن[٣]

(١) الطبري (٥/١٦٦) .

(٢) « الغوغاء من الأمصار ونزاع القبائل وظاهرهم الأعراب والعبيد » ، « إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ... » ، الطبري (٥/١٧٣ وما بعدها) .

(٣) الطبري (٥/١٥٨) .

وعرفها عليّ أيضاً وشخصها في اليوم الأول من توليه الخلافة ، وعرفها كل من كان واقفاً على واقع الحال وعلى الأسباب التي أدت الى حدوث تلك المشكلات .

فلم يكن السبئيون على ما يبدو واضحاً جلياً من رواية « السري » عنهم ، من خاصة جماعة عليّ ، ولا من أتباعه المخلصين له ، بل كانوا أصحاب رأي ومقالة وفكرة اجتماعية ، انحازوا الى عليّ ومالوا اليه ، لمكانته ومنزلته ، ولتقشفه وشدة زهده ، ثم هو على خلاف من ثاروا عليهم في المال وفي اكتناز الأرض والثروات . ولو وجدوا رجلاً آخر له المكانة التي كانت لعليّ والمنزلة التي تمتع بها عليّ بين المسلمين ، وكان له رأي كرأيهم وهوى كهواهم ، لمالوا اليه حتماً ، ولساعدوه وأيدوه ، ولكنهم لم يجدوه ، ولم يجدوا أمامهم إلا عليّ بن أبي طالب ، فالتفوا بين جماعته ، وساعدوه على حذر ، وعلى أمل التغلب عليه وتوجيهه الوجهة التي يريدونها ، وإلا انشقوا ضده وانقلبوا عليه ، إن كان ذلك في الإمكان فعله ، وانتخبوا غيره ممن يطاوعهم في تلك الآراء.

ولما خطب عليّ في مسيره الى البصرة لملاقاة طلحة والزبير ، طالباً ألا يرتحلن معه « أحد ، أعان على عثمان ، رضي الله عنه ، بشيء في شيء من أمور الناس » ، « اجتمع نفر ، منهم : علباء ابن الهيثم ، وعدي بن حاتم ، وسالم بن ثعلبة العبسي ، وشريح بن أوفى بن ضبيعة ، والأشتر ، في عدة ممن سار الى عثمان ، ورضي بسير من سار . وجاء معهم المصريون : ابن السوداء ، وخالد ابن ملجم ، وتشاوروا ، فقالوا : ما الرأي ؟ وهذا ، والله ، عليٌّ ، وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم الى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر اليه إلا هم والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شامّ القوم وشامّوه ، وإذا رأوا قلتنا في كثرتهم ؟ أنتم ، والله ، ترادون وما انتم بأنجى من شيء » . وكانت مداولة ومشاورة ، كان لابن السوداء فيها رأي مسموع وصوت عال . ثم اتفقوا على ألا يبالوا بكلام عليّ ، وعلى ان يسيروا الى البصرة ، ويشتركوا في القتال ، ولو بغير إذن ، وقد نفذوا ما اتفقوا عليه ، فكانوا في جملة من ساهم في معركة الجمل ، وأشعل نارها وابتدأ بها ، مع رغبة عليّ في عدم البدء بالهجوم ، وتجنب القتال

بالمفاوضات والسلم [1] . وقد قام السبئيون في هذه المعركة بري النشاب [2] . وكان ابن السوداء قد أوصاهم وأصدر وصاياه اليهم بقوله : « يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم ، واذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرّغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه لايجدوا بُداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ، ومن رأى رأيهم عما تكرهون ، فأبصروا الرأي ، وتفرقوا عليه ، والناس لا يبصرون » [3] .

وساهمت السبئية في القتال ، لم تبال برأي علي ، واشتركت فيه الى جانب علي . وكان واجبها وعملها اشعال نيران الحرب حرب الجمل كلما وجدت فتوراً في وقودها . تذهب الى الأمام حين تشعر بفتور القوم في القتال فتهاجم ، حتى إذا ما رأت النيران وقد ارتفعت مرّت ، وقد حاول علي زجرهم مراراً ومنعهم من القتال ، ولكنهم كانوا يأبون إلّا إقداماً ، مضوا في ذلك الى النهاية : نهاية حرب الجمل [4] .

وانتهت حرب الجمل بانتصار علي ، ونظر علي في بيت مال البصرة ، فإذا به « ست مئة الف وزيادة » ، فأمر بقسمته على من شهد معه الحرب . وقال : « لكم إن أظفركم الله عزّ وجل بالشام مثلها الى أعطياتكم . وخاض في ذلك السبئية ، وطعنوا على علي من وراء وراء » [5] . طعنوا عليه لتوزيعه هذه الأموال على ما يظهر ، ولهم هم رأي خاص في « بيت المال » ، وفي التصرف في أموال المسلمين . وهكذا نجد السبئية مع علي في الظاهر ، ولكنها لم تكن معه ، إلا اعتقاداً منها بأنها ستستغله وتستفيد منه في تحقيق وجهة نظرها في مذهبها المعروف .

ولم تر السبئية البقاء في البصرة طويلاً بعد انتهاء حرب الجمل ، فأعجلت علياً عن المقام ، كما

(١) الطبري (١٩٤/٥ وما بعدها) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٠٣) .

(٣) الطبري (١٩٥/٥) .

(٤) الطبري (٢٠٧/٥) .

(٥) الطبري (٢٢٣/٥) « بيعة أهل البصرة علياً وقسمة ما في بيت المال عليهم » .

يقول « الطبري » ثم ارتحلت بغير إذنه ، فأدرك علي غرضهم ، وخالفهم له ، فارتحل في آثارهم ، ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه »[1] . ولم تذكر الرواية الجهة التي قصدتها والمكان الذي أرادته ، والظاهر أنها قصدت الكوفة ، لتعمل عملها فيها بين مختلف الآراء والاتجاهات فيه ، وهو موضع كان سكانه من أشد الناس نقمة على المتنفذين أصحاب الأملاك من قريش . وقد ساهموا هم أنفسهم كما رأينا مع المصريين والبصريين في الثورة على عثمان .

فالسبئية التي خاصمت عثمان وحاربته ، وأغرت العبيد والموالي والأعراب بساداتهم ، وبأصحاب الثراء والأملاك ، ونادت علناً بالخروج عليهم والاستيلاء عنوة على كل ما يملكون ، لم ترض من علي أيضاً ، ولم تؤيده إلا اعتقاداً منها أنه سيستجيب لها ، أو أنها ستتغلب عليه . فلما وجدت أنه لا يقرها على ما ذهبت اليه ، ولا يوافقها على رأيها في انتزاع الأرضين والأملاك من الملاك والمثرين عنوة ، وأنه على العكس طالب الأعراب والعبيد والموالي بالرجوع الى مواضعها والى ساداتها ، نفرت منه ، وأخذت تعمل من وراء وراء للتخلص منه ، ثم تركته وسابقته . والظاهر أنها اعتزلته ، فلم تشارك في حروبه مع معاوية وجماعته أهل الشأم ، ولا في قتال الخوارج خصوم معاوية وعلي .

أما عملها ومجال نشاطها في بث دعوتها هذه ، منذ هذا اليوم ، فقد سكت « الطبري » عنه ، فلم يحدثنا بشيء عن ذلك ، ولم ينبئنا بنشاطها في هذا الميدان في الكوفة أو البصرة . كذلك لم يذكر أهل الأخبار اسمها بين أسماء الداعين الى الثورات الاشتراكية المتطرفة العنيفة في العهدين الأموي والعباسي . ولم يكن من السهل عليها بالطبع رفع رأسها بعد تغلب معاوية على العراق ، والمجاهرة بدعوتها أو التجاسر على نشرها بين الناس ، وهي متهمة بتهمتين : تهمة المشاركة في الفتنة التي قامت على الخليفة عثمان التي أدت الى مقتله ، وتهمة الدعوة الى تألب العبيد والموالي والأعراب والفلاحين على ساداتهم وعلى حكامهم ، وهي دعوى أخطر في نظر الخليفة الجديد من التهمة الأولى . وفي كلتا الحالتين لاهوادة فيها ولا مجاملة ولا رفق في المعاملة . ولذلك لم تطمع

(١) المصدر نفسه .

السبئية في عفو أو رأفة من معاوية أو من الولاة الذين عينهم على المصرين في العراق أو في مصر .

ما ذكرته هو آخر ما ذكره الطبري عن نشاط السبئية وعملها في هذا الباب . أما رأي « ابن سبأ » ، في الرجعة وفي الوصية وفي الغلو في عليّ بن أبي طالب ، فقد ذكره الطبري في أخبار سنة ٣٥ هـ ، أي في أيام عثمان وفي أثناء إقامة « ابن سبأ » بمصر .

ويتلخص هذا الرأي فيما يأتي :

١ — الرجعة : قال ابن سبأ للمصريين : « العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عزّ وجلّ : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبلوا ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها » .

٢ — الوصية : وقال ابن سبأ للمصريين أيضاً : « إنه كان ألف نبي ، ولكل نبيّ وصي . وكان علي وصيّ محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعليّ خاتم الأوصياء » .

٣ — الطعن في الخلفاء : « ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ووثب على عليّ وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتناول أمر الأمة ، ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا في هذا الأمر ، فحرّكوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجعلوا يكتبون الى الأمصار يكتب بعضهم في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون . فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يبدون غير ما يظهرون » .

أما الرجعة ، رجعة النبي محمد الى العالم بعد وفاته ، فلا نجد لها أثراً في فرق الشيعة ، أو الفرق

---

(١) الطبري (٥/٩٨) .

الأخرى . نعم ، لقد تشكك عمر في وفاة النبي ، حين فوجيء بخبر وفاته ولم يصدقه ، ولكنه عاد فصدقه . والرجعة التي نادى بها ابن سبأ تختلف عن الرجعة التي ذهب اليها عمر .

والرجعة الى الحياة بعد الموت ، من الآراء المعروفة عند كثير من الشعوب ، ومنهم أهل مصر القدماء . أما البت في صحة ما نسبه السري الى ابن سبأ من القول بالرجعة ، فأمر غير ممكن في الزمن الحاضر ، ولا يمكن البت فيها ، ما لم تتوفر لدينا موارد أخرى جديدة تزيد في علمنا بآراء هذا الإنسان .

والذي يظهر من روايات أهل الأخبار عن الرجعة عند ابن سبأ أنه كان يقول برجعة علي ابن أبي طالب . وقد ذكر أنه لما بلغه خبر مقتله قال للذي نعاه له : « كذبت ! لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة ، وأقمت على قتله سبعين عدلاً ، لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ، ولا يموت حتى يملك الأرض »[1] .

وأما الوصية ، فإنها من عقائد الشيعة الأساسية ، وعلي في نظر الشيعة هو وصي رسول الله ، وهو خاتم الأوصياء ، كما أن محمداً هو خاتم الرسل والأنبياء ، وهو الإمام أيضاً ، ومنه انتقلت الإمامة الى ولديه الحسن فالحسين ثم الخلفاء . وفي الخلفاء تختلف فرق الشيعة في إمامتهم .

ويذكر النوبختي أن عبد الله بن سبأ والى عليّاً ، وأنه قال إن علياً من الرسول بمنزلة يوشع ابن نون بعد موسى ، وأنه أول من شهر القول بفرض إمامة عليّ ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه . ثم قال « فمن هنا قال المخالفون إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية »[2] .

ويذكر الرواة أن ابن سبأ غالى بعد ذلك في علي بن أبي طالب ، وأن غلوّه هذا ورأيه في الوصية دفعاه الى الطعن في الخلفاء الثلاثة والصحابة الذين لم يوافقوا علياً ، وتبرأ منهم ، وأنه

---

(١) فرق الشيعة (ص ٢٢) .

(٢) فرق الشيعة (ص ٢٢) .

تطاول عليهم وأخذ يسبهم ، ولما سُئِلَ عن ذلك ، قال : « إن علياً عليه السلام ، أمره بذلك . فأخذه علي ، فسأله عن قوله هذا ، فأقرّ به ، فأمر بقتله . فصاح الناس إليه : يا أمير المؤمنين ، أتقتل رجلاً يدعو الى حبّكم أهل البيت ، والى ولايتك والبراءة من أعدائك ؟ فصيره الى المدائن . »[1]

ونجد في بعض الكتب إشارة الى فرقة دعوها بـ « السبّابية » ، عرفت بسب الخلفاء المذكورين وبعض الصحابة ممن لم يكن من مؤيدي علي . وقد قصد بها « السبئية » وصرح بذلك . البغدادي[2] وابن حزم[3] والاسفراييني وآخرون[4] .

وقد قال البغدادي عند كلامه على « السبابية » : « السبابية أتباع عبدالله بن سبأ »[5] ، وذكر ابن عبد ربه رواية للشعبي عن الرافضة ورد فيها : « وقد حرّقهم علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، بالنار ، ونفاهم الى المدائن ، منهم : عبد الله بن سبأ ، نفاه الى ساباط ، وعبد الله ابن السبّاب ، نفاه الى الحاذر ، وابن كروس »[6] . و « عبد الله بن السبّاب » هو عبد الله ابن سبأ ، ولا شك ، وقد أخطأ راوي الخبر ، فجعل من الرجل الواحد رجلين : اسم أحدهما عبد الله بن سبأ ، واسم الآخر عبد الله بن السبّاب .

والسبئية هم « سبابية » إذن ، أي من الجماعة التي عرفت بالتطاول على الخلفاء وعلى بعض الصحابة ، واشتهرت بسبّهم . والسبّ هو لون من ألوان التعبير عن العواطف ، حيث تغلب العاطفة على العقل ؛ وهو نوع من الإفراج عن النفس . وقد سبّ الأمويون عليّ بن أبي

---

(١) النوبختي : فرق الشيعة (ص ٢٢) .

(٢) الرسالة : العدد ٧٧٦ ، تاريخ ١٧ مايس ١٩٤٨ (ص ٥٥٦) .

(٣) الفصل : بحث فرق الشيعة .

(٤) وفيات الأعيان (١/٤١٥) ، فوات الوفيات (١/٢٩٨) « طبعة مصر » ، السبكي : طبقات الشافعية (١/٢٢٨ و ٣/٢٣٨) .

(٥) الفرق بين الفرق (٢٢٣) .

(٦) العقد (١/٢٦٢) .

طالب ، في مقابل سب هؤلاء للأمويين ، كما طعن الخوارج في عثمان وعلي وفي الأمويين .

وذكر بعض أهل الأخبار والفرق أن السبئية غالت في علي ، وأنه « كان يدعي النبوة ، ويزعم أن أمير المؤمنين ، عليه السلام : هو الله ، فبلغ ذلك أمير المؤمنين ، عليه السلام ، فدعاه وسأله ، فأقر بذلك ، وقال : نعم أنت هو ، وقد كان ألقي في روعي أنك أنت الله ، وأني نبي ! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : ويلك ! لقد سخر منك الشيطان ، فارجع عن هذا ثكلتك أمك ، وتب . فأبى ، فحبسه ، واستتابه ثلاثة أيام ، فلم يتب ، فأحرقه بالنار ، وقال : إن الشيطان استهواه ، فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك . »

وروى أن الإمام جعفراً الصادق ذكر عبد الله بن سبأ فقال : « لعن الله عبد الله بن سبأ ! إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان والله أمير المؤمنين ، عليه السلام ، عبداً لله طائعاً . الويل لمن كذب علينا ، وأن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا نبرأ الى الله منهم ، نبرأ الى الله منهم ! »

وفي هذا الغلو يقول السيد الحميري :

قـــومٌ غـــلوا في عليٍّ ، لا أبا لَكُمُ ... وأجشموا أنفســاً في حبِّه تعبــا

قالوا : هو ابن الإلـه جلَّ خالقنــا ... مـن أن يكون له ابن أو يكون أبا (1)

وروي أيضاً أن علياً لما رأى اصرارهم على الغلو فيه ، وقولهم له : أنت أنت ، أي أنت الإله ، أمر بإحراقهم في النار : أمر بحفر أخدود لهم وضع فيه ناراً ، وأحرقهم فيها ، وأنهم كانوا يقولون ، وهم يشاهدون النار : الآن ثبت لنا أنك أنت ، لأنه لا يحرق في النار إلا الله . وأن علياً قال في ذلك شعراً منه :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً ... أججت ناري ودعوت قنبرا

وزعم أن أتباع عبد الله بن سبأ ، وتسميهم بعض الكتب السبئية وتسميهم كتب أخرى

(1) العقد الفريد (٢/٢٣٦) ، طبعة محمد سعيد العريان ».

السبابية ، قالوا إن علياً حيّ لم يمت « وهو الذي يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه ، وأنه سينزل الى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . »[1]

ويظهر من موازنة ما جاء في تاريخ الطبري وفي كتب الملل والنحل بما جاء في كتاب فرق الشيعة للنوبختي والرجال للكشي ، أن كتب الشيعة قد غالت في ذم ابن سبأ وفي التنصل منه والتبرؤ من آرائه ، وزادت في نسبة الغلو اليه . وهذه ملاحظة تستحق الدرس .

عرفنا السبئية في روايات السري ، وهي في الأصل حركة اشتراكية تدميرية ، دفعتها عوامل متعددة ، وانتهت بقتلها الخليفة عثمان ، وبتولية علي بن أبي طالب ، وعرفنا أنها لم تكن تؤيد علياً إلا طمعاً في تغيير الأوضاع وقلب الأحوال . فلما وجدت أنه ليس على ما تريد ، تذمرت منه ، وأخذت تعمل للتخلص منه ، فكيف انقلبت الى فرقة تغالي في حبه ، وتبالغ في تقديسه ، حتى جعلته إلاهاً ، وشبه إله . وهل يعقل وقوع ذلك من هذه الفرقة ؟

هذه أسئلة مهمة ، تحتاج الإجابة عنها الى غربلة جميع ما ورد في هذه الروايات ، وتقصد سلسلة سند السري ، وسيكون ذلك عملنا في الجزء التالي من المجلة إن شاء الله .

جواد علي

(١) الشهرستاني (١/٢٦٥ وما بعدها) ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران .